الفصل الثاني عشر

الحـرب الأهلـيـة ــ ٣

بدأ اللورد (مونْتْباتنْ) وظيفته في جو مناسب تماماً له؛ لقد بدا أنّ به كُلَّ الخِصال اللازمة، تقريباً، لمثْلِ منصبه هذا: استعداد واضح للقيادة مَقرون بكل السماحة الاجتماعية، عقْل جيد وملامح حَسَنَة وجِسْمٌ متناسق ووجاهة بسبب نَسَبِهِ الملكي يُضاف لذلك الرُوحُ الجذْرية المغامرة التي وافقت الوقائع السائدة في الهند.

وبجانب المواهب الطبيعية والسلالة الملكية كان في اللورد شيءٌ آخر أعْطَتْهُ الحكومة البريطانية، أوْ ربّما استخلصَتْه منْه، ولم يكن لِسَلَفِهِ أبداً: توْجيهات سياسيّة واضحة في إطار زمَني ثابت. كانت هذه مكاسب هائلة مَنَحَت مهمته المعالم المحددة للعملية العسكرية. كان هو واللورد (ويڤل) من القواد الحربيين، وباستطاعة المؤرخين القادمين التخمين الهام فيما كان سيفعله اللورد (ويڤل) بمثْلِ هذه المكاسب... لو حصل عليها. لقد يَسّرت هذه للورد (مونتباتْن) اخْذَ زِمَام المبادرة تماماً خلال فترة إدارته القصيرة. ربّما يقول أحدهم بسُخْرية: إنّ استغلال هذه الامكاناتِ في سبيل التَدْمير... أمْرٌ سَهْل فَنَائِب الملك، الجديد كان قريباً من البدْءِ في عملية تَهْديم وتمْزيق لما بَنَتْهُ سِلْسِلَةٌ طويلة من أسْلافه الأمبراطوريين. وسيوافق الجميع غالباً على أن زمام المبادرة والإمكانات كانت أشياء لم يَحْظَ بها في الواقع أي نائب سابقٍ للملك مُنْذ عَهْد (كِرْزُونْ).

ولقد دَوَّنَ كاتب هذه السطور في كتاب سابق له ما يلي:

«كل شيء فعَلَتْه بريطانيا خلال سَبْعَة عَشر عاما من إقامتي في الهنْد لم يَرْقَ لُمِسْتَوَى الأحداث. فإذا سبقت الآن الأحْداث ـ تحتَ ضغْط المهْمازِ الهنْديّ الطائش فسيكون ذلك، على الأقلّ، خطَأ... في الاتجاه الصحيح»[1].

وأسباب التأخر هذا كانت متعددة ومعقدة، ولقد وصف (وُوْدْرَفْ) جيّداً نوع العمل التوازني المسلوب القوة والمتزايد الصعوبة، الذي وجد نواب الملك في القرن العشرين أنْفُسَهُم مُجْبَرين على أدَائِه قبلْ أنْ يُصْبحَ بالامكان القيام بعَمَلٍ مُجْدٍ، حين قال:

---

(١) من كتابي (القَمَرُ المُقرَن ـ . (Horned Moon)

«لم يكن هناك أيّ موضوع للقتال في سبيل إخْضَاع الهِنْد، كذلك لايمكن التفكير بإجْبَار المسلمين على الخضوع للهِنْدوس. من ناحيةٍ أخرى لقد أعطيْنَا نحن البريطانيين، للهند وَحْدَتها السياسية ونرغب في حفظ هذا الإنْجاز. ولا يمكنُنا أيضاً التخلي بسهولةٍ عن المصالح التي دَعَمَتْ، بصورةٍ عامة الحكمَ البريطاني: الأمراء، المنبوذين، السكان الأصلين والفلاحين. وَنُريد أن نُسَلم السلطة لِمنَ يستطيع أن يبقي البلد مُسْتقراً. كل هذه الاعتبارات جعلت الموقف التفاوضي معقداً. وفي أي نوع من الاتفاق ـ أو التعاقد ـ سواءً كنتَ تريد شراءَ منزل.. أو تسليم أمبراطورية، من الفائدة القُصوى عدم وجود عراقيل لِمَعْرفةِ ماذا تريد؟ وما القيمة التي أنْتَ على استعداد لدفْعِها. وكانت هناك عراقيل في كل هذه المجالات، حتى عام ١٩٤٧، في طريق نائب الملك».

وكان للوردْ (مونْتْباتِنْ) شيئ إضافيّ لم يكن لسابقه: ليس فقط ميْلُه للدعاية المعاصرة كما أَشَرْنا سابقاً، بل لديه في مكتبهِ الخاص طاقمٌ من المساعدين الإعلاميين[1]، وهكذا في الوقت الذي يتخبط فيه الباحث للحصول على معلوماتَ عن إدارة اللوردْ (ويڤلْ) ـ بانتظار صدور شيء ما مِثْل كتاب (كُوْنلْ) الذي سيكون لصدوره فائدة كبرى ـ نرى بالمقابل أن اللورد (مونتباتن) أدار أموره في وضح النهار وهناك ثروة مكتوبة من معلومات موثوقة موجودة في كتُب هامة صدَرَتْ قبلاً.

وبعد وصوله مباشرة ـ في ٢٢ آذار، مارس، ـ انْشَغَلَ اللوردْ (مُونْتْباتن) بجولة من اللقاءات. والواقع أن الحماس بلغ به حدّاً جعله يبدأ في إرسال مذكرات للسيدين (غانْدي) و(جِنَاح) قبل حَفْلة استلامه الرسمية، وكان اللورد (ويڤل) لايزال نائبا للملك في مَقَرِه الرسميّ، واقترح اللورد (مونْتْباتن) في مذكراته الاجتماع بهما ـ السيدين غاندي وجناح ـ وَسَرْعان ما وَضحَ أن الجدة وعدم الرسميات في أسلوبه، ونشاطه وذكاءه وشخصيته الجذّابه وشبَابَه و (ليبراليته) وعدم وجود أي روح للتمييز العنصري في تفكيره ـ وربما كان ذلك من تربيتهِ العالميه في القصور الملكية الاوروبية واستماعه للاحاديث الدولية المعقدة ـ كل ذلك جعل اللوردْ (مونْتْباتنْ) في موقف ودّي جداً مع زعماء حزب المؤتمر بخاصة السيد (نهْرُو). ولم يُعرف إلا القليل عن اتصالاته بالرابطة ويمكننا أن نرى الآن انها رُبما كانت مفيدة ـ لو حصلت آنذاك ـ ولوْ انتبهتْ الرابطة أكثر لهذه الناحية، وكانت قلة

(١) (كامبِلْ جونسون)، (مِينونْ)، و(إسْمَاي).

الاتصالات هذه نذيراً بالشؤم.

ولم يكن لتغير نائب الملك تأثير معيّن على الحرب الأهلية، كانت هناك بعض فتراتٍ من الهدوء النِسْبي منها ما حَدَث مباشرة بعد البيان السياسي في لندن في ٢٠ شباط ـ فبراير ـ والفترة الأخرى حدثت حوالى نهاية آذار ـ مارس؛ وبعد ثلاثة أسابيع من استلام (مونْتْباتن) لمنصبه أنجز، بقليل من الحظ، ما بدا أنه نجاح كبير، فقد استطاع أن يُقنع السيد (غاندي) والسيد (جناح) بإعْلان نداءٍ مُوحدٍ للعامة لإيقاف العنف. ولكن تأثير هذا الاعلان كان سريعَ الزوال. فكما ذكرنا في الفصل الثامن، ربما وَصَل الصراعُ آنذاك إلى نُقْطةِ «اللارجوع» إنها كارثة (بيهار) ولن يوقف ذلك التدهور إلا التقْسيم ـ كانت هذه هي الحقيقة الأساسية، رغم عدم الاعتراف بها رسميّاً.

وكان حزام (الإنْدوس) و(الغانْجْ) متورطاً منخرطاً كله إلى حدٍ ما في الاضطرابات من (شيلونغْ) إلى (خَيْبَر) بما في ذلك المناطق الصعبة من الوديان والسهول الواسعة. ولولا قوة عسكرية لدَعْم قوة البوليس ـ الشرطة ـ التي فقدت كثيراً من معنوياتها في أكثر أنحاء شرق الهنْد وتحوّلت بصورةٍ متزايدة نحو الطائفية وانشق قسْم منها بالتمرد في (بيهار) خلال شهر آذار ـ مارس.، نقول لولا هذه القوة العسكرية لسَقَطت الإدارة إلى قاع فوضَى كلية؛ كذلك نشأ الصراع في بقع أخرى أيضاً ووقعت إصابات كثيرة في عدّة اصطدامات في (بومباي) وتعَوَّد الإنسان على كل هذا؛ ففي أحد الأيام كنت راكباً دراجتي في أحد شوارع (كلكتا) أفكر فيما سأكْتبه في الافتتاحية القادمة للجريدة ففاتني تقريباً مُلاحظَة تراكض الناس في كل اتجاه وهم يصرخون، إذ أصبحتْ الإثارات مُتكرّرة، وفي تقاطع الطريق التالي حيث توقفت عند إشارة المرور، لاحظتُ حَاجب مكتبي يركض ورائي منزعجاً ليلفت نظري أنني مررتُ وَسْط اضطرابات سببتْ، كما عِلمْتُ بعد ذلك، عدداً من القَتْلى؛ لقد حَسِبْتُ أن الضوضاء هي فَرقعة السيارات بينما كانت هي فِعْلاً قنابل وطلقات. ولقد أشار (تاكِر) لِوَضْعِ (كلكتا) ما بين ٢٩ آذار ـ مارس و٧ نيسان ـ إبريل ـ كالتالي:

«لم تكن الفوضى قد عَمت حتّى ذلك الحين، ومع ذلك أظْهرتْ السجلات ثمانمئةِ إصابة خلال اسبوع واحد، أما الحوادث التي لم تُسَجّل رسمياً فلا يُعْلَمُ عنها شيء؛ ومن المنطق الافتراض أن ألفاً ومئتي شخص قتلوا أو شُوّهوا في تلك الأيام القليلة؛ ولكن لا يمكن للمرء وصف حالةٍ مُعينة. شللٌ صغيرةٌ في أزقةٍ ضيقة تمارس أعمالها تاركة وراءها

على الأرض جُثتين أو ثلاثة وبعض الجرحى المترنحين من إصابتهم يبعدون أو يحملهم زملاؤهم من هذا الفريق أو ذاك. ياللمفارقة بين هذا الوضع... وبين الماضي القريب عندما كان يفاخر الإداريون الانكليز، كما ذكر (وُوْدْرَفْ)، : «في بلد تعْدادُه أرْبَعُمئة مِليون يجب قَدْرَ الإمكان، ألا يقع إنسان على الأرض بحادث عُنفٍ دون أن يجري تحقيقٌ فيه وتقرير للحكومة عنه».

وحقيقة الاوضاع التي وصلتها شبْه القارّة وَقْتَ تغيير نائب الملك مُوضحة في الأمور التالية:

من أصْلِ إحدى عشرة ولاية، تسعٌ تُحكم الآن بالمراسيم والأوامر الاسْتثنائية ـ وليستْ بالاساليب المستقيمة في زمن السلم عادةً ـ التي تُمكّن الحاكمين من المنْع الاعْتباطي للاجتماعاتِ والتظاهرات وتوقيع العقوبات الشديدة. ومع ذلك استمرت الصدامات؛ والشيء المهم الذي تغير في آخر آذار ـ مارس ـ هو انتشار الاضطرابات من المناطق الشمالية للبنجاب (راولبندي وأتوك) ومن منطقة (حَضَرةْ) والمقاطعة الشمالية الغربية إلى أرْضِ الباثان الأصلية. ففي (بيشاوِرْ) كانت هناك حكومة شاذّة يرجع سبب وجودها لخصوصيات الوضع في تلك الولاية في تاريخها القريب، فترة (١٥ ـ ٢٠ سنة) الأخيرة. رغم أن ٩٢٪ من السكان هم من المسلمين كانت الوزارة موالية لِحزب المؤتمر ويرأسها الدكتور (خان) الأخ الأكبر في مجموعة (خانْ إخوان) مؤسسي حزب القمصان الحُمْر المحليّ.

أما كيف حدث ذلك فيحتاج إلى تعليق. و(كارْوِي) هو المرجع الحديث الأفضل في هذا الموضوع. الباثان هم من الشعوب المُحبَّةِ للحرية إلى أقصى الحدود، ولقد وصل الحكم البريطاني مناطقهم في آخر المطاف، بَعْد انتشارهِ في باقي شِبْه القارّه ـ ولم يكن ذلك بغرض تجاري ـ كما كان الحال بالنسبة للمناطق الأخرى ـ بقَدْر ما كان لأسباب اكثرها استراتيجية، ولم يَبْدُ الحكمُ البريطاني هناك شديد الاستقرار. أولاً، في عام ١٨٤٩، وجَدَ الباثان أنفسهم مندمجين إدارياً مع البنجابيين على يَدِ الحُكام البريطانيين ولكن في عام ١٩٠٠م خلال إدارة نائب الملك (كورزون) جعلوهم ولاية منفصلة: الولاية الحدوية الشمالية الغربيه (وتُدعى بصورة عامة الوَلاية الحدودية)، وهي مُشكلة من خمس مناطق باثانية في السهول ثم ربُطَ بها، بصورة رَخْوة، وتحت الإدارة السياسية لحاكم

الولاية، حِزَامُ المرتفعات القبلية على امتداد الحدود مع أفغانِسْتان.

ومع ذلك، عندما أُدْخِلتْ إصلاحات (مونْتاغو ـ شِلْمفورد) عام ١٩١٩م للحكم الذاتي، على الولايات، استثنوا الولاية الحدودية منها لأسباب استراتيجية أولاً ثم لضعفِ الدخل في تلك المنطقة. وهذا التمييز المجحف بأناس هم في الحقيقة أكثر سُكان شبه القارة ميلاً للروح الاستقلالية، أثار الحنق. ونتيجة وقوف الزعماء المحليين المسلمين هناك مع زعماء حزب المؤتمر المسيطرين وجُلّهم من الهندوس، في مواجهة السلطة البريطانية، أدّى الأمْر إلى اضطرابات خطيرة في بيشاور وما حولها خلال حملة السيد غاندي للعصيان المدني عام ١٩٣٠. وأزيل التمييز عام ١٩٣٢ وطُبّقت إصلاحات الحكم الذاتي على الولاية الحدودية التي نَعِمَتْ بقانون الولايات الأخرى عام ١٩٣٥. ولكن جاء هذا الأمر متأخراً. ونظراً لِتَمَتع المسلمين بالغالبية السكانية العُظْمى في تلك الولاية، لم يَشْعُر أكثرهم بعَدمَ الثقة والشكّ بنوايا الهندوس، كما شعر المسلمون في المناطق الأخرى، وبقي التحالف المحفوظ في العِشرينات بين الباثان وأتباع السيد غاندي حَيّاً خلال تَعَاقُب عَقْدين كاملين. وفي الانتخابات المحلية التي حدثت لأسباب معينة في آذار ـ مارس ـ عام ١٩٤٥، تغلب الدكتور خان وحزبه القمْصان الحُمْر على حزب الرابطة الإسلامية واستلم الوزارة بغياب حِزْب المؤتمر الذي قاطع الانتخابات، وبقي الحزب أكثر سنواتِ الحرب، قبل ذلك، في السلطة.

ومع ذلك، وخلال أشهر قليلة بدا أن الدكتور (خان) مع زملائه لم يَعُد يَحْظى بغالبيةِ الرأي العام إذْ حصل تحوّل سريع في المشاعر ضِدّ حِزْب المؤتمر؛ وبعد سنوات من ذلك كتب (أبو الكلام أزادْ) عن واقع الأوضاع عام ١٩٤٦. وكان رئيساً لحزْب المؤتمر آنذاك ـ ما يلي : لم يكن لدى (الإخوة خان) في الولاية الحدودية الدعَمْ والتأكيد الذي كنا نظنّه لديهم ونحن في «دلْهي»؛ فكراهية الحكم البريطاني بدأت تأْخُذ أهمية أقلّ من أهميّةِ هواجس الباثَان مما سَيَأْتي بعد زوال الحكم البريطاني. هل سيكون حقّا حُكْم هندوس أو هندوس وسيخْ ؟ ولِدَهْشَتهم بدأوا يتحققون أن هذا الاحتمال أمْر لايمكن استبعاده وحتى الباثان، من غير المتعلمين، يهتمون اهتماماً حيوياً بالسياسات القائمة أكثر مما يهتم فلاحو البنجاب، بالاضافة إلى أن لديهم ذكريات تاريخية طويلة. ويسترجعون الآن الخصومات المدمره داخل العائلة الحاكمة (سلالة دُراني) والتي أدتْ بهم إلى قيام حكم هِنْدي عليهم

في الثلاثينات من القرن التاسع عشر، وهو حُكْم السيخ الذي ذكرناه قبلاً؛ ولايريدون عودة شيءٍ من ذلك الآن، فأمَّهات الباثان يُخَوِّفون أولادهم ـ حتى الآن ـ بالسيخيّ (هارى سنغ)[1].

وما أن جاء خريف عام ١٩٤٦ حتى كانَتْ أسواق (بيشاوِرْ) مملوءَةً بحكاياتٍ تُجمد الدماء في العروق، عن أحوال الاضطرابات في شَرْقِ الهِنْد. ولم تكن مناطق سهول الباثانِ المتصلة ببقية العالم بالطرقات وسكك الحديد، هي وحدها المتأثرة بعودة المشاعر الطائفية والتاريخية، ففي الهضاب والتلال، حيث يعيش أناس جُفاةٌ قُساةٌ كان اطلاعهم كبيراً لِدَرَجة لم يتصورها سكان المدن. فرجال القبائل وهؤلاء الناس بدأوا يتوجهون بأنظارهم نحو الأراضي الخصبة ويتلمسون أسلحتهم مثلما فعل أجدادهم... ويفكرون بمشاريع الجهاد والسَبْي!.

هكذا كان الحال في تشرين أول ـ أكتوبر ـ عام ١٩٤٦ عندما قررّ ـ بشجاعة ـ السيد (نهرو) زيارة الولاية الحدودية كرئيس للحكومة المركزية الموقتة دون أن يستمع لنصيحة (كارو) و(أبي الكلام أزادْ) المعاكسة؛ وذلك عندما حَثّه على هذه الزيارة أخو الدكتور (خان) المسمى (غاندي الولاية الحدودية). وحَسْب رواية (أزاد): لما وَصَل (نهرو) مَطارَ (بيشاورْ) وَجَدَ آلاف الباثان هناك مُتجمعين يحملون الأعلام السود ويجأرُون بهتافات معادية، حتى إن الدكتور خان وزملاءَه الوزراء الذين جاؤوا لاسْتقباله كانوا تحت حماية البوليس ـ الشرطة ـ، ولم يكن لهم أي تأثير. وخلال الأيام القليلة التي تَلَتْ الزيارة الرسمية وَجَدَ الباثان أمامهم براهين حسية عما يعنيه التغيير السياسي في دِلْهي... التغييرات التي واكبتها مذابح طائفية لم يُعْرَف لَهَا مثل من قبل في البنغال. لقد وقف في وسطهم سياسي هندوسي، من البرهمانيين، وليس ألعوبة في يد البريطانيين بل حاكماً لكل شبه القارة تقريباً. وكان ردُّ فعلهم واضحاً. لقد وجهتْ له الإهانات في الاجتماع القَبَلي الذي أقيم على شرفه في (رَزْماكْ) وغيرها، كما سَجل ذلك (أزادْ): لقد ألقيت الحجارةُ على سيّارته وأُصيب في مقدمة رأسه، وبدا الدكتور (خان) وزملاؤه أضعف من أن يفعلوا شيئاً مما حدا (بجواهر لالْ نِهْرد) أن يأخذ الأمور بيده.

وأَظْهرَ (نهْرو) خلال الزيارة شجاعةً مُميزة، إلى أن الأمر انْتهى إلى فَشَلٍ تام ـ

---

(١) هُوَ الجنرال (هاري سينغ نلوار) الذي حكم منطقة (بيشاوز) كممثل لرانجيت سنْغ.

فْياسْكو ـ ، أضْعَفَ سُمْعة حزب المؤتمر وعَرّضَ الأقليات للمخاطر الجمَّة. وكان خطوةً غير ضرورية كما دعاها (أزادْ) بعد ذلك، وقال إنه عارضها في حينها.

وبعد ذلك بقليل بدأت تنتشر الصور الفوتوغرافية المخيفة عَمّا جرى للاقلية المسلمة في (بيهار) ومعها أوراق.. مُمَزّقة من القرآن الكريم ـ مُلطخة بالدماء ثم تبعَتْها تقارير عن فظائع (غَرمُلْتِسْوَارْ)؛ وغَلتْ المشاعرُ المعادية للهندوس وفارت بعد هذا الغليان.

ولكن الوزارة المحلية، مدعومة بالدعاية والمال الآتي من رئاسة حزب المؤتمر في (دِلْهي) بقيت غير مُهتزة وقاوَمَتْ الانهيار بلباقةٍ واضحة وكان الدكتور (خان) إدارياً قديراً أقلَّ عناداً وضيقَ أفقٍ من أخيه، وكان لزميله وزير الخزانة الهنْدوسي السيد (مهْرْسانْدَ كَنّا) شجاعة وذكاء. ومع ذلك، وَسَّعَت الرابطة الإسلامية حَملتها السلمية في شباط ـ فبراير ـ ١٩٤٧ ضد (خضْر حياة) ووزارته الائتلافية الضعيفة في (لاهور) ونقلتْها بعد بدئها هناك، إلى الولاية الحدودية التي واجهت حكومتُها المحلية الموالية لحزب المؤتمر ارتباكاً في أعمال ابتدعَها أصلاً حزب المؤتمر نفسه وطبقها لإخراج البريطانيين ولقد فوجئ الوزراء وكبار الرسمين في الولاية بالذهنية الابتكارية التي دعمت استمرارية الحملة السلمية، وكان ذلك لازما بعدما تحوّلت الأمور وكان لابد من أن تستمِرَّ حتى حزيران ـ يونو ـ وبدا أن الدكتور (خان) وزملاءَه لم يَهْتزوا من انهيار نظام (خُضْر حياة) في بَحْر خمسة أسابيع... في البنجاب، واعتقدوا أن لوزارتهم جذورها في المشاعر السياسية المحلية، وليست وزارة رُتبت كبديل على عجل كما كان الأمر في البنجاب وسرعان ما اعتقل زعماء الرابطة المحليون وعلى رأسهم (خان عبد القيوم خان) ـ وكان قبلاً من أعضاء حزب المؤتمر .، وملئت السجون بمؤيديهم ومع ذلك استمرّ المتحمسون للرابطة في مظاهراتهم ضاربين بأوامر المنْع عَرْض الحائط. واستعرضوا على الحَمير (تمثال) الدكتور (خان) في الشوارع وهم يضربونه ثم يحرقونه في الأماكن العامة.

وحاصر المتظاهرون المحاكم ودوائر الشرطة والجمارك، وحصلت اضطرابات في السكك الحديدية ليس فقط بمحاصرة مكاتب التذاكر بلْ بإصْدار تذاكر غير مُرخّصة تحملُ اسم «تذاكر باكستان» وبإطلاق صفّارات الإنذار في العربات والتمدد على الخطوط الحديدية. وكما حصل في البنْجاب، كان للنساء نشاطات بارزة أدْهَشَت الذين يَعْلمُون مدى التشدّد في عادة احتجاب النساء في البيوت في هذه الولاية الحدوديّة، التي استمرّت

حتى عَهْدٍ قريب. فسيدات المستوى الأعلى للطبقةِ المتوسطة تَسَلَّقْن أكثر من مرّة السلالم التي وضعوها على جدران السجون التي احتجز فيها المعتقلون السياسيون ولَوَّحْن بأعلام الرابطة الإسلامية عالياً. وتأثّرت المناطق الريفية أيضاً، ويتذكرّ كاتب هذه السطور عندما كان يتجول في الولاية في أواخر أيار ـ مايو ـ مجموعات تليها مجموعات من فلاحي الباثان الأقوياء فوق عربات تجرها الثيران مكبلين بالأصفاد وفي محياهم عزم وَرضى يقادون إلى السجن على طريق (مَرْدَانْ بيشاوِرْ) لأنهم اشتركوا في المظاهرات القروية تأييداً للرابطة وكان واضحاً أن حملة العصيان المدني المسالمة كانت منظمة ولها تأييد كبير من الرأي العام. ورَغْم ذلك حصلت بَعْض الصدامات الدامية المحدودة ممازاد في مخاطر تَعرُّضِ الاقلية من الهندوس والمسيخ، كما حصل في النهاية، لهجمات ذوي المزاج الحار. ووقعت بعض الحوادث داخل وحول (بيشاورْ) في العاشر من آذار ـ مارس ـ وفي الأول والرابع عشر من نيسان ـ إبريل ـ كذلك في (آبوت آباد) في الرابع من نيسان ـ إبْريل ـ؛ وفي أواخر ـ مارس ـ آذار ـ حَصَل مُجدداً اضطراب في مَنْطقة (حَضَرة) كَفَرْع من اضطرابات البنْجاب. وكانت الإدارة البيروقراطية في الولاية مهمومة لمعرفتها بان الولاية مليئة بالأسلحة غير المرخصة.

وبلغت الاضطرابات ذروتها خلال الاسبوع الثالث من نيسان ـ إبريل ـ في جنوب الولاية التي كانت حتى ذلك الحين هادئة، في (دِرَجاتْ)؛ إذْ حدثت اضطرابات شديدة ضد الهنْدوس أولاً، وبسبب متعة السلب والتدْمير، داخل وحول دائرة (إسماعيل خانْ) مَرْكَز المنطقة، وفي (تانْكْ) وهي مدينة أسواق يَتَردَّدُ عليها رجال القبائل. وفي (دائرة إسماعيل خان) رُصَّ السجْنُ بأتْباع الرابطة ولذلك بدأت اضطرابات داخل السجن في ١٥ نيسان ـ إبريل ـ، ثم انْتشرت بسرعة للمدينة وبقيت لساعات بدون أي ضابط، وكان هناك الكثير من النهب والحرائق. وأسرعت قوات الجيش قادمةً من (منزايْ) وساعدت الشرطه ولكن القنصَ والإحراق استمَرَّ الأيام عدّة؛ ومن الطريف الاطلاع على تقرير رسْمي يذكر كيف أن سياسيين من وزراء حكومة الدكتور (خانْ) ـ وهما نظرياً مرتبطان بحركة غاندي السلمية ـ وصلاً من (بيشاورْ) وضغطا من أجْل تطبيق تدابير أكثر شدة، بما في ذلك استعمال المدرعات ومدافعها ذات (٢٧ مليمتر) لضرب القلاع التي يحتلها القناصة فقبلَ الجيش ذلك بطريقةٍ مريبة، وهدَمَ إحدى تلك القلاع بمدافع المدرّعات وخلال ستة أيام من

الاضطرابات دُمِرَ تسعمئة دكان (حسْب البيانات الرسمية، وزاد الضغط على البوليس لمّا عرف موضوع انتشار الاضطرابات إلى القرى المجاورة منها (كومال بازار) و(باهِرْ يُورْ) و(كلتا) و(موسى زَايْ) و(حاتا جَلْوا).

وامتدَّت الاضطرابات إلى (تانْكْ)، كما ذكرنا، حيث نَشَأتْ مشاكل خطيرة في ١٧ نيسان (إبريل) وتميزتْ بحقيقة وجود صعوبات محلية حالت دون حضور تعزيزات [خمس فصائل وبعض المدفعية المحمولة من قوات كانت في جنوب (وزيرسْتَانْ)] ونظرا لهذه الصعوبات نزلت وحدةٌ من قوات الحدود من الهضاب وكانت هي المرة الأولى التي تُسْتَدْعى فيها مِثْل هذه القوات المشهورة لاضطرابات في السهول، وهي مليشْيا مُتحركة متميزة عن الجيش، وظيفتها الأصلية في مناطق القبائل.

بدأ الاضطراب في (تانك) بمشاجرة تافهة في السوقَ وسرعان ما شمل كل السُكان المسلمين في المدينة مضافاً إليهم رجال القبائل الذين كانوا مارّين هناك، ونهبت متاجر ومساكن الهنْدوس وحَصَل قَنْصٌ وحرائق ووَصَفَ بيان رسمي مساء ذلك اليوم بأنّه كان غاية في الفوضى والارتباك وشوهِدتْ حرائق عبر الدخان الكثيف المتصاعد من أسطحة المساكن، ودامت الفوضى ثلاثة أيام متوالية ثم اشتدت في ١٩ نيسان ـ إبريل ـ بسبب ريح شديدة، ونجاح رجال قبائل الهيتالي في تحويل المياه القادمة للمدينة لمصلحتهم في ريّ الحقول. واكثر أعمال القَنْص كانت من بيوت الهندوس الكبيرة إذْ اسْتَأجَروُا، كما عُلِمَ بعد ذلك، بعض المرتزقة من قبائل المَحْسُود وهم أشرس الناس، لحمايتهم ودفعوا لهم المال على اساس «ساعات العمل» كل ساعة يستطيعون فيها مشاغلة قوات الحكومة كانت تَعْنِي مزيداً من المال في جيوب المرتزقة. وكان الهمُّ الأكبر للسلطة هو مكافحة النيران لحماية رجال التجارة الهندوس والسيخ وعددهم عدّة آلاف، ومَنْع الغوغاء من أفراد القبائل المهتاجة حول المدينة من دخولها للنَهْب والسلْب. كانت الإصابات قليلةَ ـ في الأرواح ـ وكبيرة في الخسائر الماديّه مما ازعج أهل المدينة المسلمين ، بعد ذلك.

وكان في (تانْكِ) مستشفى تُديرها سيدات بريطانيات تابعات لكنيسة انكلترا في البعثة التنصيرية (زِنَانَا) لخِدْمة رجال القبائل الرُحَّل المتنقلين من وإلى الهضاب. ومن تقرير الطبيبة المسؤولة آنذاك الآنسة (شِربورن) بَدَتْ نُقْطَتَان هامتان:

أولاً: وكما ذكرنا سابقاً، فإن التقارير عن ذَبْحِ المُسلِمين في (بيهار) خلال شهرتشرين

ثاني ـ نوفمبر ـ هي التي أدّت إلى الاضطرابات.

ثانياً: رغم الطابع الديني، إلى حدٍ ما، فإن الظلم الاقتصادي لَعِب دَوْرَهُ في إثاره هذه الاضطرابات.

وهذه مقاطع من تقرير الطبيبة:

«كانت الكراهية الطائفية ناراً تحت الرماد إلى أن ظَهَرَتْ عَلَناً في الشتاء نتيجة وصول التقارير عن الهند. كانت عادة التُجار المسلمين في (كولاشي) ـ وهي على بعد ٢٦ ميلا من (تانْكْ) ـ الذهاب إلى (تانْكْ) للأعمال التجارية. وقبل الاضطرابات في (دائرة إسماعيل خان) كانت مجموعة منهم عائدة من (بيهار) وأوقف القطار في مكان معزُول حيث كان الهندوس يتربصون لهم وذبحَ عدد كبير من المسلمين، وبعضهم استطاع النجاة وعاد لـ (كولاشي) حاملاً معه قصص الفظائع الوحشية التي ارتكبتْ ضدّ المسلمين، وانتشرتْ هذه القصص في المنطقة. وعندما قنن الغذاء والكساء أثناء الحرب لاحظنا نحنْ هنا، ازدياد توتر العلاقات بين الهندوس والمسلمين إذ كان الهندوس مسيطرين على كُلّ التجارة تقريباً. وبينما كان الحصة الشهرية ـ وهي يارْدْ ونِصْف من القماش ـ غير كافية لعمل ثوبٍ لشَخْصٍ واحد، وكانت غير متوفرة أحياناً كثيرة، لم يكن ينقص الهندوس القماش والثياب، كذلك كان الأمر بالنسبة للغذاء، ومن بين مَرْضانا لاحظنا أن الهندوس لاينقصهم أي شيء. وخلال اضطرابات نيسان ـ إبريل ـ ١٩٤٧ كان هناك قوافل مستمرة من الفلاحين المارين بممتلكاتنا في طريقهم إلى المدينة للسلب، وأظن أن العديد منهم اعتبر أن الفرصة قد جاءتهم من السماء ليستعيدوا بَعض الاشياء التي حُرموا منها لمدّة طويلة بينما كان الهندوس في نِعَمِهم يتمتّعون ونَذْكُر جيّداً كيف كان فلاّحو الباثان يأتون المستشفى مُعْلِنين أن مَرْضى آخرين بَقُوا في مساكنهم لا يستطيعون المجئ لأن في البيت ثوباً واحداً فقط يستعمله مريض واحد وعلى المريض الآخر الانتظار ليْستَعير الثَوْب للمجئ للمستشفى في الغد».

ولقد دَعَا اللورد (مونْتْباتن) مِنْذ استلامه لَمِنْصِبهِ أن الولاية الحدودية ـ آنذاك ـ كانت أكثر النِقَاطِ تَفَجُّراً على خريطة الهِنْد، لذا تَخَلَّصَ موقتا من الدوّامة السياسية في (دِلْهي) ليقوم باسْتطلاع فيها لمدة عدّة أيَّام. ولقد وصف (كامْبِلْ جونْسونْ) وغيره الإثارات التي تَلَتْ بأسلوب حيّ ففي (بيشاورْ) تجمع مُؤيّدو الرابطة الإسلامية في كُتلٍ قُدِرَتْ بسبْعِينَ إلى مئة ألف شَخْص، قُرْبَ القلعة، وكذلك في كتلة أخرى مماثلة حول المطار وهم عازمون

على إبداء رأيهم لنائب الملك وصحبه. ولولا تَعامل السلطات المحلية، بما فيها الحاكم (كارو) ونائب الملك نفسه، مع هذه الحالة بسرعة وبتصوراتٍ صحيحة لَحَصَلَتْ إراقة كبيرة للدماء، ولايمكن تقدير مدى نجاح الزيارة في تخفيف التوتر السياسي ولكن النظرة التاريخية إلى الوراء، الان، تُبينُ أن الأزمة الأصلية بَلَغَت حدّها قبل عَشْرَةِ أيام في اضطرابات (دائره اسماعيل خان) و(تانْكْ) ثم أخذت بالانفراج ولكن في ذلك الحين كان الشيء الوحيد المؤكد في الولاية الحدودية بل وفي كل سهول (الإندوس) و(الغانجي) أن المشكلة تَعَدّت التوقعات الإدارية العادية وأن أي شيء يمكن أن يحدثَ في أية بقعة. وكان من الواضح منذ بداية العصيان المدني الذي أعْلَنَتْهُ الرابطة الإسلامية في شباط ـ فبرايْر ـ إلى وَقْت إعلان الحكومةِ البريطانية خِطتها في ٣ حزيران ـ يونيو ـ أنه سيُسمح لِسُكّان الولاية الحدودية باسْتِفْتَاء عن انْضِمَامِهِمْ لباكستان إذْ بَقِيتْ هذه المنطقة المشهورة باضطرابها في شِبْه القارّه، في وَضْع شديد الخطورة.

وهكذا مَرَّ الشتاء بسرعة في مواطن الباثان وجاء الربيع الجميل ومن بعده الشهران الحارقان أيار وحزيران، ومازال الحُكْم الشاذ الموالي لحزب المؤتمر متعلقاً بأذيال السلطة في (بيشاوِرْ) محاطاً بمعارضةٍ شعبيةٍ وفوضى. ولم يكن بُدّ مِنْ أن يُلْقِيَ الرسميون المتْعْبون نظراتٍ حاسدة على زملائهم في البَنْجاب الذين طبقوا التدابير الشديدة الواردة في القسم (٩٣)[١] من قانون حكومة الهنْد لعام ١٩٣٥ مُنْذُ انْهيار وزارة (خُضْر حياة) وبإلقاء نظرة للوراء، مع اعْتبار خصوصيات الولاية الحدودية وموقِعِها الاسْتَراتيجي وأهميّتِها السياسية وقبائلها الضخمة الهائجة في المناطق الشماليه، وحقيقة أن كل منطقة متاخمة لِنَهْر الاندوس كان لها شكل متضارب في التاريخ والثقافة والمشاعر، وميل إلى الغرب نَحْوَ إيران وأفغانِسْتان ـ مثلما كان لبُورْمَا ميل للشرق ـ نحو تايْلَنْدْ والصين، نقول بإلقاء هذه النظرة قد نَشْعُر بالدهشة: كيف لم تَتَشَقّقْ الإدارة المدنية وتتداعى خلال الأسابيع الشديده عام ١٩٤٧م.

وأحد العوامل التي حالت دون ذلك، والذي يمكن ألاّ يلحظه الناس، هُوَفي المهارة التي أبداها ضباط السلك السياسي والوحدات الحدودية في المناطق الجبلية، تحت إدارة الحاكم (كارُو)، والتي أدّت إلى ضَبْط النَفْس لدى القبائل وفي المناطق الحضرية بقيت

(١) بند «انهيار النظام» في قانون الهند لعام ١٩٣٤م.

الشرطة فاعلةً مُؤَثّره (بِعَكْسِ ماكان في شرْقِ الهنْد) كذلك كانتْ قوّة الجيش في هذه المنطقة أكثر تواجداً وكثافةً نسبيةً من المناطق الأخرى. فلقد كانت هناك أربع فِرقٍ حَوْل (بيشاورْ) فقط واسْتُخْدمت لمساعدة السلطة المدنيه أكثر مما كان يفعل في العقود الثلاثة الماضية. وفي التحليل الأخير للموقف ربما كانت هذه الحقيقة، ومعرفة السكان المتمرِسين بالقتال والسلاح أهم العناصر التي حالت دون الكارثة.

وخلال شهْر أيار، ورغماً عن إعلان الإدارة المباشرة في البنْجاب، ووجود عشرين ألف جندي اندلعت الاضطرابات مرّة أخرى في هذه الولاية بخاصة في أزِمةِ (أمْرِسْتَارْ) و(لاهور) ونَشطَ المتخصصون بإشْعال الحرائق أكثر من أيّ وقْتٍ مضى. وكانت هناك أسباب متزايدة لتَدَهْوُر الأوضاع في سائر أنحاء شِبْه القارّة، وبدأتْ سلطة الرسمين البريطانيين بالتقلص لانها ستنتقلُ، على كل حال إلى أيدي الوطنيين في مدةٍ أقصاها صيف عام ١٩٤٨، وكان إعلان المستر (أتلي) في هذه الناحية واضح حتى للفقراء الجهلة. وحتّى الثالثِ من حزيران ـ يونيو ـ لم يكن أحد يعرف بالضَبْط إلى منْ ستؤول السلطة: لنظام جديد واحدٍ أمْ لِنظامين جديدين أوْ لِعِدّة أنْظِمة. وتِبْعاً لذلك، وبعد الاستراحة القصيرة في شباط ـ فبراير ـ بَدَا أن تحْديد الموعد الأقصى للانسحاب أدّى لموجَةٍ جديدةٍ من الشكوك التي زادت بدورها تَسَارع الحرب الأهلية وشعر الطرفان المتنافسان بأنهما مُضْطرَّان لإعْلانِ ادِعَاءَاتِهما ومواجهة الواحد للآخر بالأمر الواقع قبل انتقال السلطة.

ومن النقاط الخاصة ذات الأهمية الكبيرة، التي ذكرناها باخْتصار في الفصل الثامن، هي الأثر المدمر لإعلان شباط على مصادر المعلومات «الاستخبارية». وفي البنجاب (الولاية الهنْدية المثالية) التي لم تُعانِ هُبوطاً في المستوى مِثْلما عانَتْ الولاية الشرقية المتاخمة لنقطة القتال في الحرب العالمية الثانية وأجْبرت على التسليم بذلك، بدا التغيير ـ أيْ في البنجاب ـ حاداً، فهُنا لم يكن الأمْر مُجرَّدَ هُبوطٍ غير ملموس للسلطة البريطانية بلْ خسارةٌ ماديّه حسية. فلقد تحقق المخبرون فجأة أن العمل لِنظام مُعْتَرَفٍ بعلتِه، محفوف بمخاطر مُفزعة، ويجب التوقّف عَنْهُ إذا أرادوا ألا يُصابوا أو تُصَاب عائلاتهم بشرورٍ لاحدَّ لها مُسْتَقْبلاً. ولقد كتب أحد المسؤولين السابقين في الولاية لكاتب هذه السطور إنّ إعلان شباط ـ فبراير ـ أدّى إلى الانهيار الكامل مباشرةً ـ تقريبا ـ لجهاز اسْتخبارات البنْجاب المعروف بفاعليته العالية. حتّى ذلك التاريخ كانت معلوماتنا جيدة جدّاً بالنسْبة لما يقوله

ويفعله المسلمون والسيخ والهندوس جميعاً. ولكنْ حالما أعْلن أن البريطانيين راحلون جَفَّت كل مُصَادِر المعلومات. وهذا النُضُوب المفاجِئ لهذه المصادر الموثوقة السابقة، للمعلومات كان وَلاَ بُدّ، أحَدَ أكبر الأسباب في الانْحِدَار السريع للإدارة والذي كان واضحاً في شمال الهنْد في ربيع عام ١٩٤٧.

وفي أواخر ايار، وفي الطائرة المنطلقة من (بيشاورْ) باتجاه (لاهور) كان كاتب هذه السطور يُفكّر بمشاكل الباثان التي كانت موضِعَ بَحْثٍ حديث عندما وَعَى أوضاع البنجاب الذي لاح أمامه. ففي الافق تحت القبة الزرقاء الساطعة تَعَالَتْ كتْلةٌ من الدُخان الكثيف القائم وفي قاعدتها كانت تَلْمَع بَعْضُ ألسْنَةٍ من اللهب الأحمر الواضح رَغْم تألق الظهيرة ليوم قائظ في الهنْد. أغلب منقطة البازار ـ الأسِواق ـ كانت مشتعلة داخل أسْوار البلدة القديمة. ولم تكن الاضطرابات مقتصرة على مدن البنْجاب ففي ذلك الشهْر بدأت الأخبار في الانتشار عن أحْداث في أطراف الولاية البعيدة المتاخمة لولاية (أوْتَارْ بْرَاديشْ) ولِمَا كان يُسَمى آنذاك (رَاجْ بُوْتْنَا) منطقة صخرية ذات هضاب قليلة الارتفاع تبْعد ستِّين ميلاً إلى الجنوب من (دلْهي): الحوادث الأوّلية عن الصراع المُفزِع الذي دُعيَ (ثورة المِيُو) والذي استمر طوال الصيف وبلغَ أوْجَهُ خلال آب ـ أغُسْطُس ـ في عمليات ذَبْحٍ مُنظمةٍ للفلاحين المسلمين.

واستمر الاضطراب في الطرف الآخر من شبْه القارة: ذَكرْنا أوضاع (كَلْكُتا) ولم يَمُر يوم واحد، طول السنة، بدون حوادث. وفي (آسَامْ) حيث تَبَنَّتْ الرابطة مطالب المسلمين المهاجرين من البِنْغَالْ، اسْتَمرّ العصيان المدني، مِثْلَ الولاية الحدوديّه، ضدّ وزارة حزب المؤتمر. صحيح أن القيادة الشرقية لم تأخذ هذه الحواث على مَحْمل الجدّ، كما أثبتْ الاحداث لاحقاً كانت أكثر ملاحظات (تاكِرْ) عنها مُغلفة بالازْدِراءِ المَرِح؛ فكانت تحرّكات القوات من الاحتياطي الهزيل تبعاً لذلك الانطباع. ولكن كان من المستحيل التأكد. كان الرسميون القِلقون هناك يطلبون المزيد من التعزيزات فالقاعدة الأساسية آنذاك، والتي ذكَرَها (إسْمَايْ) كانت في تَوقع مالا يتُوقع. ولم يكن أحَدٌ يدري متى يَبْدأ الاضطراب ولا اين ولا كيف سيَنْتهي. وكوني محرراً لصحيفة تصدرُ من مدينتيْن تفصْلهما مسافة ثمانمئة ميل[1] يمكنني أن أؤكد ذلك من تجرُبتي. كثيراً ما سافَرْتُ لتقْديري من

(١) المسافة بين (كلْكتا) و(دِلْهي) مثل المسافة بين (لندنْ) و(دانْتزيغ) أو طليطلة، في اسبانيا مثلاً؛ وهذا وضع غريب. بالمقاييس الأوروبية لأيّ رئيس تحرير!

اتجاهات الأمور، أن وجودي في تاريخ مُعّين في كَلْكُتّا كان ضرورياً أكثر من وجودي في (دلهي) ولكن جاءَتْ الوقائع عَكْسَ تقديري.

لم تتحسَّنْ، في تلك الأثناء، العلاقات بين حِزْب المؤتمر والرابطة في الوزارة الموقتة بدلهي مثقال ذرّة بتغيير نائب الملك. وفي آذار ـ مارس ـ قبل رَحيل اللوردْ (ويڤلْ) كانت الميزانية المُذهلة التي قدّمها وزير المالية ـ لياقة علي خان ـ فارضةً ضرائب شديدة على أرباح الشركات، وضريبة على رأس المال ومُخفضة الضرائب على الحاجيّات، ومستَهْدفةً أيضاً في نواح أخرى الأغنياء. ولقَدْ فُسِرَتْ هذه الميزانية من قِبَل أعضاء حزب المؤتمر ـ وبَحَقْ في تقديري ـ على انها تَسْتَهْدِف أغنْياء الهنْدوس الذين كانوا يُموِلون الحزب. واستمرّ الخلاف على هذا الأمر، والذي لم يَمْنَع المِسْتر (نِهْرو) الاشتراكي من الانحياز إلى المُعسْكَر الرأسمالي، في الاسابيع الأُولى لاستلام نائب الملك الجديد. وأصبح واضحاً الآن ليس فقط انعِدامُ التشاور بين جناحَيْ الوزارة، بل انْعِدام آمال الحكومة البريطانية أثناء الخريف السابق في أنّ العمل اليومي في الوزارة يُؤدِي إلى التفاهم المتبادل، فلقد كانت هذه الآمال مبنيةً على سراب ولم يكن هناك فرصة لقيام هذا التفاهم فقد استمر ظهور الصراعات المريرة داخل الوزارة في الخُطب والتصْريحات الصحفية والتُهم العلنية المتبادلة بين الوزراء.

كتب (لومْبي): إن بعض التعْيينات التي أجراها (البانديت نهْروُ) في المناصب الدبلوماسية والقُنْصُلية في وزارة الخارجية مِثْل تعْيين (آصف علي) من حزب المؤتمر كسفير في الولايات المتحدة الأميركيه، أثارت اسْتْنكار الرابطة الشديد. بينما بعث السيد (شونْدريكارْ) ـ وكان وزير التجارة ومن حزب الرابطة ـ مُلْحَقَيْن تجاريين من أَنْشَطِ الدُعاة لباكستان وكانا مسؤولين أمام وزير التجارة فقط.

وفي مقطع من فَصْلٍ عن الهند في كتاب (إسْمايْ) وَصَفَ دَهْشَتَهُ بعد وصوله لـ (دِلْهي) مع نائب الملك الجديد ـ وكان أحد اثنين من الرجال البارزين الذين جاؤوا معه لمعاونته ـ مِنَ الحالةِ السائدة وكانت معرفته السابقة بالهنْد في العِشرينات والثلاثينات تحت إدارة حُكْم (وِلّنْغدَنْ) لقد وَجَدَ أن المرارة الطائفية قد نَمَتْ إلى حدٍ غير معقول. وخلال الأسبوع الأوّل من وصوله كان مَقْعَدُه في إحدى حفلات العَشاء بين وزيرين، واحد من الرابطة والآخر من حزب المؤتمر: «طول فترة العشاء تحدّث إليّ هذان الرجلان المثقفان، بدون

توقف، وكانا عادةً ذَوَي سلوك مِثَاليّ، وبصوت عالٍ، عن عدم المساواة بين الطائفتين المُتَعارضَيَنْ»

واسْتطرد قائلاً:

«أمّا بالنسبة للوزارة الموقّته ككُلّ: فأنا أشكّ في وجود أي ائتِلاف آخر.. لأعْضَائِه مِثْلُ هذا التَصْميم على عدم التعاون فيما بينهم».

وخلال نيسان وأيّار كانت محادثات اللورد (مونْتْبَاتِنْ) الأوليه مع الزعماء السياسيين عن موضوع متى؟ وإلى مَن؟ ستُسَلَّمُ السلطة بعد ذهاب البريطانيين؛ وبدا أن الرأي عند كبار مسؤولي حزب المؤتمر بأنهم سيُسَلّمون ـ ولو عنْ غير طيب خاطر ـ بمَشْروع باكسْتان وأن الحرب الأهلية القائمه لاتتْرك مجالاً لأي قرار آخر. ولكن كان من الواضح أيضاً أن حدود الدولة الجديدة ستكون مُتقلِّصَة ولنْ يَسْمَح الهندوس والسيخ أبداً بَتْرِكها تَتَشَكلِ من خَمْس ولايات كاملة حَسْب الخطة المدَوَّنه[1] . فلقد حاول حزْبُ المؤتمر باسْتمرار جَعْلَ آسام مع البنغالْ كما هو مطلوب في خِطّة البَعثة الوزارية. ولقد حصلوا على تأييد المِسْتر غانْدي في هذا الصدد. وهذا يعني بالنسبة لباكستان خسارة ولايةٍ كامله مالم يكن هناك طريقة لِتَحوْيل منطقة (صِلْحِتْ). وفي البنغال والبنجاب (وهما أكبر ولايَتَيْن في مشروع باكستان) بدأ غير المسلمين صَخَباً منذ كانون ثاني ـ يناير ـ مِنْ أجْلِ منطقةٍ مُنْفصلة لهم وحدهم. فإذا كانت شبه القارة سَتَنْقسِم فيجب أن تُقَسَّمَ ولاياتهم أيضاً بما أن الغالبّية المسلمة في الولايَتَيْن ليست عالية، وإنّ ضَمَّ كتْلَةِ مُواطنين مُعَاندين بصورة دائمة لباكستان سيكون أمْراً مستحيلا. لذا فالجزء الأكبر مِنْ ولايتي البنغال والبنْجاب سينْشَقّ عنهما. وفي آذار ـ مارس ـ عندما اجْتاحَتْ الحرب الأهلية البنجاب وانضم السيخُ للهندوس أصبح هذا المطلب أكثر حِدَّةً. مع ذلك ربّما بقي هناك عُنْصُر تَفاوض. ولقد لاحظ (لومْبي) ان البعض قدّروا أنه في حالة مواجهة السيد جناح بموضوع تقسيم أكيد للبنجاب والبنغال فإنّه سيتراجع ويقود الرابطة إلى قبول الخِطّة الوزارية، فلقد كان الانطباع السائد آنذاك لدى كثيرين من المراقبين المحايدين بَلْ ولدى بَعْضِ المتعاطفين مع الرابطة، أن باكستان مجزّأة لايمكنُها أن تعيش اقتصادياً ولا تستطيع أن تحمي نفْسها عسكرياً.

---

(١) البنغال والبنجاب وآسام والسنْد والولاية الحدودية وبالوشِستان كولايةٍ سادسة رغم أنه لم يكن لها مؤسسات إدارية مستقلة كباقي الولايات.

ولكن في أواخر نيسان ـ إبريل ـ تَبَخَّرتْ آمال زعماء حزب المؤتمر بتراجع السيد جناح. وفي خطابه للمجلس التأسيسي كرئيس له ـ وبغياب أعضاء الرابطة ـ فاجأ (راجنْدرا برَاساذْ) المستمعين غير العارفين بما بدا أنه قبولٌ ـ تقريباً ـ بموضوع التقْسيم. قال بتشاؤم: «يمكن لاتّحاد الهند ألاّ يَضُمّ كل الولايات. وإذا أُقِرّ مثل هذا الأمر السيءِ الحظّ علينا أن نَرْضَى بدستور لجزءٍ منه». وفي نَفْسِ الأسبوع قال السيد (نِهْرو) بأسلوب أكثَرَ خَشونة..

«يمكن للرابطة إقامة باكستان إذا شاءت على شرط ألا تَضُمَّ أجزاء من الهنْد لاترغب في الانضمام لباكستان»

ويُعطي كتاب (مينون) وكتاب (أزاد) لَمَحَاتٍ مُضيئة عَمّا كان يدور في ذهْن حزب المؤتمر لِحَل هذا الموضوع. ومن الواضح أن أهم اعتبار، حَسْب الظروف القائمة، كان التَقْسيم، فهو وحده الذي يُوَفرُ طريقا عملية تستطيعُ عبْرَها الهنْد المُسْتقلِة الوصولَ بصورةٍ شِبْه مؤكدةٍ إلى إقامة حكومة مركزية قويّة، رغم خسارتها لجزء كبير من الأرض.

في الثاني من أيار ـ مايو ـ غَادر (إسْمايْ) الهند متوجهاً إلى لندن وقيل آنذاك أنه يحمل معه مُسَوَّدة خطّة؛ كان هذا في الواقع إنجازاً سريعا إذْ أن نائب الملك لم يكن قد قضى في منصبه أكثر من ستّه أسابيع. وفي العاشر من أيار ـ مايو ـ صدر بيان يعلن أن نَائب الملك سَيلْتَقِي في السابع عشر من ايار مُمَثلي الزعامات السياسية بدِلْهي ليقدم لهم خطة حكومة صاحب الجلاله لِنَقْلِ السلطة. ولكن سرعان ما ظهر ارتباك بعد ذلك مباشرةً إذْ صدر إعلانٌ ثانٍ في اليوم التالي يُشير إلى أن اللقاء سيحصل في الثاني من حزيران ـ يونيو ـ وفي الخامس عشر من أيار تَبَيَّن أن اللورد (مُونتباتِنْ) نفسه سيطير إلى لندن.

ونعلم الآن من روايات (كامْبِلْ جُونْسُون) و(مِينونْ) و(إسْمايْ) نفسه ماذا جرى آنذاك؛ وكانت بالفعل قصة مثيرة. وكان الانطباع في الظاهر آنذاك أن الأمر كان ألاعيب مُؤسِفة. فلقد بدا أن المبادرة التي تَوفَّرتْ للبريطانيين في إعلان العشرين من شباط ـ فبراير ـ والتي اهتبلها نائب الملك الجديد بعزم قد تُرِكَتْ لِتَخْبو إلى حدِما، والواقع ان الأمر كان كذلك لِعدة أيام. فالمسوّدة التي حملها معه (إسْمَايْ) للندن وفيها انتقال السلطة من البريطانيين إلى حكومات الولايات التي تستطيع بدورها التجمع لِتِشْكيل دولتَيْن، إن شَاءتْ، هذه المُسَوَّدَة قد قُطِعت على مايبدو في (هوايتْ هُولْ) بأسلوب زاد الشعور بالخَيْبَه التي كانت أصْلا عند البعض في الطرف الهندي. وقيل أن اللورد (مونتْباتن) شعَرَ وهو في (سِمْلا) لبضعة أيام أن

المشروع غير قابل للتطبيق فقرر أن يُطلع السيد (نهرو) وكان ضيفه آنذاك، وَضد رأي مُسْتَشارِيه، على نَسْخَة من مُسوَّدَةِ الخِطةّ... (والملاحظ أنه لم يُطلع السيد جَناح أيضا عليها). وأن ردّة فِعْل السيد نهرو لم تكن مواتية لذا رُتبتْ هُنَاكَ مُسَوَّدة أخرى على عجل مَبْنية... في الغالب على آراء كان قد تقدم بها (مينونْ) بِصِفَتِهِ مستشاراً دستوريا.

وليس واضحاً ما مدى الاختلاف بين المسوّدتين. إذْ يُشَير (إسْمايْ) إلى اختلاف أقل بكثير مما اعتقده (كامبل جونْسون) و(مينون) بين المسوّدتين. على كل حال كانت الصيغة الجديدة تعتمد بوضوح على ثلاث نقاط هامة: أن السلطة لن تُنْقلَ إلى الولايات كُلّ واحدةٍ على حدةٍ كما كان النَصّ في المسوّدة الأولى، بل مباشرةً إلى حكومتين مركزيتين قويتين نِسْبّياً، وهذا يَعْني القبول بمشروع باكستان، ثانياً سيكون نَقْل السلطه عِبْر الأجهزة الدستوريه القائمه لإنشاء (دُومينيونْ) لأن هذا الوضع، فضلاً عن مزاياه الأخرى مفيد بصورة خاصة لإبقاء ضباط بريطانيين في القوات المسلحة تحتاجهم الحكومتان بشكل حيوي أساسي. ثالثاً وأخيراً: إن تاريخ تسليم السلطة سُيقدم من (٢٨ حزيران ـ يونيو ١٩٤٨) إلى موعد أقرب بكثير سيحدده نائب الملك من المسؤولين البريطانيين خلال زيارته للندنْ. وحتى لو لم يكن الفرق بين المسودتين بالحجم الكبير الذي اعتقده (مينون) كان لقليل من المسؤولين التجربه المثيرة التي مرّ بها هو نفسه في تلك الأيّام العصيبة وهو يراقب التغيرات التي دبّجها في الغالب قلمه لتطبيق أفكار تشكلت، كما يقول، قبل خمسة أشهر خلال مباحثاته مع سردار (باتل).

ومن الطبيعي أن يتردد كثيراً السؤال التالي: هل كان التسارع النهائي، والقفز المفاجئ في المرحلة الأخيرة للحكم البريطاني، نتيجة للافكار الجديدة في (سِمْلا)، هل كان ذلك ضروريا حقاً؟ أما كان من الممكن لأسلوب أقلّ تسرعاً أن يقود لنفس الهدف بطريقه أكثر إنْسَانيه؟ يقول النُقاد: كان من الممكن تحاشي مقتل مئات الآلاف من البشر لو كان القرار مختلفاً خلال الأيام العصيبة في أيار. هل كان هناك أي مبرّر لهذه الدينامية. والاندفاعات المتهورة التي كان من نتيجتها تقديم تاريخ تسليم السلطة عشرة أشهر فقط. أما كان من الممكن إيجاد طريقة أفضل؟

المشكلة حقاً ضخمة. والتعامل معها بطريقة مناسبة يحتاج لكتاب كامل. وهنا لانستطيع أكثر من لَمسِ حواشيها. وكل من عَمِلَ في منصب حَسّاسٍ نوعاً ما في الهند في

تلك الأيام معتاد على مواجهة مثل هذه الأسئلة. وقد يجد صعوبة حتى الآن، في الإجابة عنها. ربما لم يجزم حقاً بأي أمر بالنسبة لهذا الموضوع. ربُما كان يَشُك ـ وهو غير متأكد ـ إنه لو اتبعت أية طريقة أخرى غير التي كانت، وكل هذه الطرائق ـ فرضاً ـ تضم انسحابا بريطانياً أبطأ أو محاولات إعادة فرض حُكم بريطاني من مركز قوة، كلها ربما ستؤدي في النهاية إلى نتائج أكثر قتامةً مما حدث. وقدْ يتحقق ـ وهو غير مرتاح لذلك، من أن ميله لرأي ما الآن بناء على تفكير أو معلومات لاحقه يتضارب مع قناعاته السابقة. وربما تحمله شكوكه إلى حد الارتياب... بقيمة هذه المعلومات اللاحقة في هذا الموضوع. لأننا لازلنا تاريخياً نقف على مقربة من تلك الاحداث الجسام عام ١٩٤٧، بالإضافة لضخامتها، كانت معقدة وسريعة من الصعب متابعتها؛ ونظام (هُوايت هولْ) في الاحتفاظ بالوثائق الهامة السرية خمسين عاماً قبل السماح للعامّه بالاطلاع عليها يجعلها حبيسة الأدراج هذه المدّة من الزمن وهي ضرورية ليكون حكمنا على الأحداث التاريخية مُنصفاً عادلاً.

أضف إلى ذلك، ربّما يشعُرُ بعدم الارتياح لنية السائلين، بعضهم قد يكون من المتنورين... الباحثين عن الحقيقة ولكن البعض الآخر قد يكون مُغْرضا منحازاً يأمل في الحصول على جواب مُعين. والجواب الذي يريده في الغالب هو «كلا» إنهم يريدون أن يُقال بأنّ التَسَرعُ البريطاني المفاجئ في الانسحاب من الهند كان خطأ فظيعا وغير ضروري؛ وأنه كان هناك خيارات عملية أفضل. ولن يكون هؤلاء كلهم بالضرورة من سياسيي اليمين. وآخرون من العاطفيين وربما من اللون الوردي ـ سياسياً ـ مِنَ الإنْسانيين على كل حال ـ في الغالب من أولئك الذين اختاروا الاندماج ... تماماً.. في معيشة زملائهم من الهنود ونما لديهم شعور بالميل لتلك البلاد التي يعيشون فيها ولهم صلات ومعرفة شخصية عبْرَ أصدقائهم من الهندوس والمسلمين والسيخ بدرجة الآلام والعذاب التي حلت بهم في عام ١٩٤٧. ويمكننا أن نتفهم ان مثل هؤلاء الناس كانوا حساسين لنوع السُخرِية المهينة التي يتذكر كاتب هذه السطور سماعها خلال شتاء ١٩٤٧ ـ ١٩٤٨ من سيدة أميركيه: قد تكون حادثة تافهة إلاّ إنها كاشفةٌ؛ قالت السيدة: كان على البريطانيين الرحيل في آب الماضي، لأنّهم لم يكونوا أقوياء إلى الحد الكافي الذي يُمكنهم من البقاء، لم يستطيعوا توفير المال اللازم ولا خسارة أبنائهم هناك. ولعمري كانوا ماهرين، كان عليك أن تُشاهد الطريقه الماكرة التي اتبعوها للتخلص ـ من ذلك المأزق ـ.

كاتب هذه السطور يَضَعُ نفسه في هذه القضية الكبرى بجانب الذين يعطون وزنا أكبر للاراء التي تشكلت خلال الأحداث ـ على كل حال عندما يمكن، في هذه الحالة، التحقق من صحة الذكريات بما دُوِّنَ عن الأمور آنذاك ـ مما يُعطي لاراء تَشكلتْ بهدوء في أرض بعيدة بعد ستة عشر عاماً فقط من وقوع الاحداث. ولاشكّ أن فترة ستة عشر عاماً قد لا تكفي، بَلْ يجب مرور ستين عاماً حتى تُكشفَ الوثائق الرسمية السرية. لذا فهو يذكر الآن الآراء التي تشكلت عام ١٩٤٧ ملاحظاً أنها لابد تأثرت إلى حدما بالاوْضاع الجغرافية. لقد تشكلت تلك الاراء في (دلهي)، والعواصم الفيدرالية لَيْسَتْ المصادر التي يُستقى منها المعلومات الصحيحة وتستوي في ذلك (واشنطن) و(أوتاوَا) و(كانْبرا) و(كراتشي) و(راولبندي) ولَعَل الجو المتوتِّرْ الغريب في (دْلهي) في أيار ١٩٤٧ شوّة مشاعر الناس بالحقائق الواقعة. ومع ذلك هناك حقيقة أنه بالنسبة للمراقب الذي ينظر للأمور من مكتب الجريدة إلى الصور السياسية والادارية المتناثرة في الساحة تبدو الخلاصة التي لايمكن التهرب منها وهي أن تدبيراً جذرياً إلى حدّ ما، مهما كان نوعه، هو الأمر المفروض.

لقد ظهرت علامات الانحلال والتفسخ في كل مكان. وغاب تقريباً النظام والانتظام فوق رُقعة واسعة من شبه القارة، والبنية القائمة للإدارة المدنية تنهار بصورة واضحة. وبقيت القوات المسلحة في الظاهر متماسكة قوية يمكن الاعتماد عليها؛ ولكن حتى هذه المؤسسة قد تتحطم في أية لحظة تحت مطارق الصراع الطائفي الوحشي في البنجاب على مقربة من مساكن كثير من الجنود. وأمام هذه القوات انْقِسامُ محتم ـ إذا قُرر التقسيم ـ ويجب مواجهة ذلك، رُبما ليس الآن بل عند حدوث التقسيم، فموعده لم يكن أكيداً بعد إلا أنه لابد حاصل خلال عام على أبْعَدِ حَدّ. ولم يكن أحد من المسؤولين قادراً على توضيح أسلوب انقسام هذه المؤسسة العسكرية الحسنه التماسك والانْدِمَاج ولا ماهية المخاطر الجديدة التي قد تحدث وكيف يمكن اتقاؤها. ولقد كان تاريخ الهند قبل الاحتلال البريطاني مليئاً بأحداث بشعه كشفت عما تستطيع العصابات الفوضوية التطوعية القيام به عند سَرَحَانِها في الريف.

كانت الشيوعيه ناشطة. ونظرة إلى أخبار المراكز الصناعية تكشف عدم الاستقرار. وانهارت ملامح الصداقة بين روسيا والقوى الغربية التي ظهرت خلال الحرب العالمية الثانية. لذلك لن يتردد عملاء السوفيتْ في المدن الكبرى عن القيام بأي عمل. ويجب أن

نَتَذَكّر أنه خلال الفترة من عام ١٩٤١ ـ ١٩٤٤ حَظي الشيوعيون الهنود بتشجيع الحكم البريطاني في الهند لأنّهم ـ أي الشيوعون ـ ساعدوا في المجهودات الحربية بينما لم يفعل ذلك حزب المؤتمر.

وكان هناك احتمال قيام مجاعة. فالكارثة التي حَلت بالبنغال عام ١٩٤٣[١] أظْهرت أنّ الاحصاءات الزراعية في الهند والتوقعات الرسمية المبنية عليها لايمكن الاعتماد عليها. لذا فكل تغيير سيئ الحظ في الطقس أو أي سوء إدارة يمكن أن تحدث مجدداً نقصاً في الغذاء. كما لم يتقرر شيء نهائي بعد بالنسبة لمستقبل دُوَيلات الأمراء (الإمارات) التي يبلغُ مجموع مساحتها أكثر من ثلث مساحة شِبْه القارّة. كما فكر بعض حكام هذه الإمارات الواسعة أوْ الأكثر سُكاناً (حيدر أباد) وربما (كشمير) و(بُهُوبالْ) و(تْرَافنكورْ) بطبيعة الحال، بإعلان أنفسهم مُسْتقلين. أما ماهي احتمالات العيش لهذه الإمارات بمُفْرَدها فالرأي فيها مختلف ولبعضِ هذه الإمارات تقاليد تاريخيه ذات وزن واعتبار. واغلب الناس آنذاك قدروا أن هذه الإمارات هي أصلب مما ظهر بعد ذلك.

كما ظهر هنا وهناك حركات انفصالية بعضها زائف وأكثرها أصيل: مثل طلبات قبائل (أديباسي) في (أوريسا) من أجل دولة (جَرْكُهند). ومثل تلك الطلبات من قبائل (الناغاسْ) القوية الشكيمة على حدود (بورما) مع (آسّام) والذي سَبّبُوا في الواقع للسيد (نِهْرو) ونظامه كثيراً من الاضطرابات في الخمسينات ومطالب من (نيپال) للانفصال عن البنغال في الشعاب التي تَتَخَلَّلُ هضبات (المنغولويْدْ) في منطقة (دار جينغ) وطلبات المسلمين من أجل جَيْبٍ أوْ مَمَرٍّ في غرب ولاية (أوتار بْرَادِش) حيث كانت الثقافة المغولية أقوى وحيث عاشت قبائل (الروهيلا) الأفغانية. وفي أقصى الجنوب حيث بقايا ذكريات ممالك التاميل القديمة وحيث الكراهية للعجرفة الحالية للشماليين المتحمسين لِلُغةِ «الهندي». وفي الشمال الغربي حيث الدعوة لـ (بختونِسْتَانْ) ولدولة مستقلةٍ للباثان يرفعُ لواءها الآن حزب القمصان الحُمْر كدَعْوةٍ مضادةٍ للعصيان المدني الذي حمل لواءه حزب الرابطة، وبدَعم... مِنَ السيدّ (غاندي) وحكومة أفغانستان لأسباب مختلفةٍ. وهناك طبعاً الدعوة لخالِسْتان كدولة منفصلة ووطن قَوْمي للسيخ الذي حكموا البنجاب قبل قرن تقريباً. واكثر مايدهش الدعوة المفاجئة التي قام بها السيد (سهروردي) رئيس وزارة محلية مؤلفة من الرابطة

(١) اعترفت السلطات الرسمية أن (١.٨٧٣.٧٤٩) شخصاً ماتوا بسبب المجاعة.

الاسلامية، بالاتفاق مع السيد (ساراتْ بوز) عضو حزب المؤتمر المنشقّ من أجل دولة مستقلة ذات سيادة في البنغال الموحد في الهنْد المُقسَّمة.

وما لم تتخذ مواقف حازمة جازمة لِضَبْط كل هذه التيارات الانفصالية فمن المؤكد حدوث فوضى عامة.

ويَحْوي كتاب (وُوْدْرَفْ) مقطعا وَصْفياً يعكس الأوضاع الذهنية للكثيرين في دلهي آنذاك. قال: «كأن يعيق حَلَّ مشكلة تَسْليم السلطة بَعْضُ التفاصيل: تَسَلُّمُ الخدمات العامة ـ الذي ورد بوضوح وتصورٍ يُثيران الإعجاب في تقرير (سايمون) ـ بُني على فرضية ... تحمْي وتَحْفَظُ الجميع: الأمراء، والمنبوذين، والمسلمين وكثير غيرهم. يجب الاحتفاظ بالوحدة والحفاظ على الحياة... وعلى هذه الأسس قامت إدارة الخدمات العامة وبواسطتها، ولاجدال لأحد فيها، استطاعت بريطانيا «الإمساك بالذئب من أذنَيْه» وكان الأمر يحتاج لشجاعةٍ كبيرة من أجل تَبْسِيط أو تزوير المشكلة، أو تجاهل هذه التعقيدات أوْ إهمال الأشْداقِ المفتوحة للذئب والتخلي عن القبضة الممسكة بأذنيه. كان الأمر مَزيجاً من الشجاعة والخطورة. وكان هو الأمر الصحيح الذي يجب القيام به. وارتفع الثمن المدفوع تدريجياً مع التأخير. ويكفى فقط تعْداد الموتى شهراً بعد شهر للتأكد من هذه الحقيقة. يجب الحسم بسرعة»

على كل حال جاء الحسم كما عَرِفْنا. ويقدم (كامبل جُونسون) و(مينون) و(إسمايْ)، و(أبو الكلام أزاد) من وجهة نظره المختلفة تفاصيل تُلْقي الأضْواء على ما جرى خَلْف الكواليس في (دِلْهي) و(لندن) ولماذا جرى ذلك في النصف الثاني من أيار ـ مايو ـ وفي الثاني من حزيران ـ يُونيو ـ جاءت اللحظة الحاسمة في الإعلان الرسمي. ذهب سبعة من الزعماء يُمَثلُون حزب المؤتمر والرابطة والسيخ ـ افتراضاً ـ بناء على دعوة نائب الملك إلى منزله ليطلعوا منه على الخطة النهائية التي أقرتها الحكومة البريطانية. وكانوا كلهم، خلال الأسابيع السابقة في لقاءاتهم الخاصة معه على اطلاع واحتكاك حميم بالخطة أثناء المداولات في سائر المراحل. وفي المساء التالي أذاع ثلاثة منْهم (نهرو) و(جناح) و(بالديف سنغ) ممثلاً للسيخ. مُوافقَتَهم، رغم التردد لدى البعض، على الخطة؛ وأذاع بيانها المفصل اللورد (مُونتباتنْ) على العالم الخارجي في مؤتمره الصحفي المتميزّ[1].

(١) وهو نفسه الذي قرأ البيان من الاذاعة في اليوم السابق.

وأخيراً انتهت الشكوك والحيرة والتردُّد. سينسحب البريطانيون مباشرةً، ليس في العام المقبل بل في مدة قصيرة ـ مذهلة وربما... خطرة ـ لا تتجاوز أحد عشر أسبوعاً. وكان الاستقلال السياسي الكامل لجميع شبْه القارة في متناول اليد. وما لم تكن نتيجة التصويت بالطرق المعترف بها في مجالس الولايات معاكسة تماماً للتوقعات ستقومُ دَوْلة باكستان الجديدة بعد خصومات مريرة جداً وصراع. ولنَنْقُلْ هنا حَرْفيا كلام (مُونْ) الذي اتخذ مَوْقفاً مغايرا لزميله (وُوْدْرَفْ)، إلا أنه خدم في البنجاب بينما لم يَخْدم (وُوْدْرَف)[1] فيه. قال: «بإجماع لم يَسْبَقْ له مثيلٍ اتفق الجميع على طريق سيقود مباشرة لحمام دم ـ ومذابح جماعية ـ وهذا احتمال قائم في البنغال أما في البنجاب فهو حتمٌ مؤكّد. ومن حسن حظّ الأفراد الذين أقروا الاتفاق ولراحة بالهم لم يكن واحد منهم باستثْناء (بالديف سنغ) يعرف شيئاً كثيراً عن البنْجاب لذلك لم يتوقعوا ما كان قادِماً. أما المسؤولون البريطانيون في البنْجاب فلم يكونوا من هذه الشلة السيعدة الحظّ».

---

(١) فيليب (ووْدْرَفْ) كان اسماً مستعاراً لـ (فيليب ميسُونْ) كاتب مقدمة كتاب (تُويْز).